د. عبدالناصر سلامة
باحث دراسات إسلامية

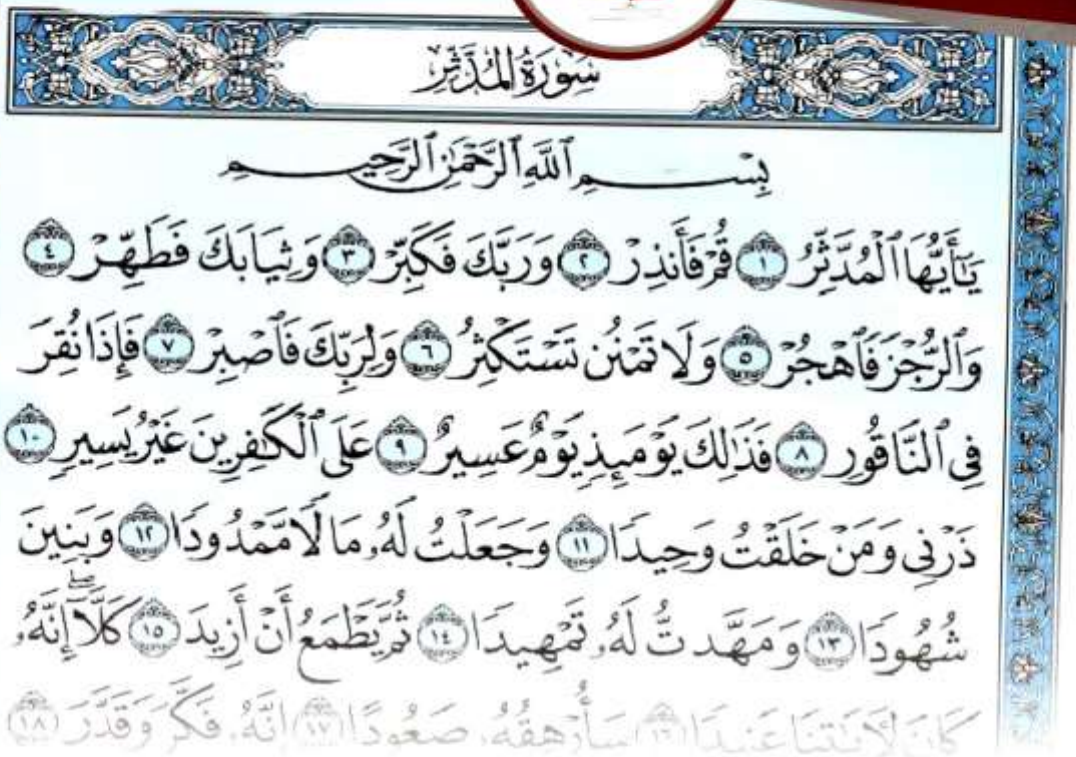

آداب الدعوة إلى الله من خلال سورة المدثر

يقول الله تعالى في مطلع سورة المدثر مخاطبا النبي الكريم ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ (المدثر: ١-٧).

تكاد تجمع كلمة العلماء أن هذه الآيات من صدر سورة المدثر هي ثاني ما نزل على النبي ﷺ بعد آيات سورة اقرأ (العلق)، وأنها نزلت تأمره ﷺ بالدعوة إلى الله تعالى بعدما أعلمته آيات اقرأ بنبوته.

وكون هذه الآيات نزلت لهذا الغرض يجعلنا نترقب أن تكون متضمنة لجماع آداب الدعوة إلى الله تعالى؛ باعتبار أنها موجهة لإعداد شخصية أعظم داعية لله على الإطلاق، والذي سيكون الأسوة والمرجع في هذا الشأن لمن معه، ثم لمن بعده

إلى قيام الساعة.

وإذا كان الأمر كذلك فلا بد أن نستخلص من هذه الآيات بعض ما تجلى فيها من تلك الآداب الموصى بها، مع التنبيه على عبارة «بعض»؛ إذ لو رام المتأمل استخلاص غيرها لتحقق له قصده، وحسبنا في هذا المقام ما سنذكره:

التزود بالعلم والفقه

وهذا المعنى نستفيده من ترتيب نزول هذه الآيات على رسول الله ﷺ؛ إذ إن نزولها كان عقب نزول آيات ﴿اقرأ﴾ كما قدمنا ذكره، وهي آيات آمرة بالعلم كما لا يخفى، مما يدل دلالة قوية على ضرورة العلم والفقه قبل ممارسة الدعوة، وهو ما يؤكده قول الله تعالى أيضا: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة:١٢٢)، حيث إن الله تعالى حث في هذه الآية على التفقه في الدين قبل القيام بأمر الإنذار والتبيين.

كما أن العلماء قد وضعوا قاعدة تقول: إن العلم قبل القول والعمل، كما بوب بذلك البخاري في صحيحه في كتاب العلم منه، ومعلوم أن الدعوة جزء من العمل الذي لا يقوم بدون علم، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ (الإسراء:٣٦).

الرحمة والليونة

وهذا المعنى نستمده من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، حيث يقول الإمام القرطبي في تفسير الآية: «وفي الآية ملاطفة في الخطاب من الكريم إلى الحبيب إذ ناداه بحاله، وعبر عنه بصفته، ولم يقل: يا محمد، ويا فلان، ليستشعر اللين والملاطفة من ربه، ومثله قول النبي ﷺ لعلي إذ نام في المسجد: «قم أبا تراب»... وقوله ﷺ لحذيفة بن اليمان ليلة الخندق: قم يا نومان»[1]. ففي هذه الآية الجليلة إرشاد النبي ﷺ إلى أن إظهار الرحمة والشفقة، والبعد عن الغلظة والفظاظة، هو من أهم ما تفتح به القلوب المغلقة.

وهذا الأدب من أهم مستلزمات الدعوة الناجحة، ولذلك أوصى الله تعالى به كليمه موسى وأخاه هارون عليهما السلام حين أرسلهما إلى فرعون فقال لهما: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ (طه: ٤٣-٤٤)، إذ من شأن الملاينة والملاطفة استمالة القلوب ولو كانت قاسية.

ويكفي لمعرفة صدق هذا المعنى الذي ذكرناه أن نقرأ قول الله تعالى في آل عمران واصفا خلق النبي الكريم ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾، فهذه الآية تكشف لنا أن السبب وراء الحب العجيب الذي لقيه ﷺ من صحابته الكرام، والذي لم يعرف له نظير في يوم من الأيام، هو ليونته ﷺ معهم ورحمته بهم، وأنه لولا ذلك لنفروا منه وانفضوا عنه رغم نبوته.

العزم والجد والتصميم

وهذا المعنى نستفيده من قوله تعالى: ﴿قُمْ﴾، في قوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾، قال أبوحيان في تفسير الآية: «أي قم قيام تصميم وجد»[2]. والمعنى أن الأمر بالقيام هنا هو أمر بترك الراحة والنوم والهناء بنعيم الدنيا إلى الحزم والعزم والجد في الدعوة إلى الله تعالى؛ فطريق الدعوة طريق شاق، ومسالكه صعبة، ولا يقدر عليه إلا صاحب عزيمة وإرادة صلبة، ولذلك وجدنا رسول الله ﷺ دائم التعوذ من العجز والكسل، كما هو ثابت عنه في صحيح النقل.

الاستعانة بالله وتعظيمه واستصحاب ذكره

وهذا المعنى نستفيده من قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، وهو أمر صريح من الله لرسوله ﷺ بأن يعظمه وينزهه، ويكثر من ذكره، ويستصحب ذلك في كل أوقاته، وذلك حتى ينال عونه وتوفيقه، كما قال سبحانه: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة:١٥٢)، وكما في الحديث الصحيح: «أنا مع عبدي إذا هو ذكرني وتحركت بي شفتاه»[3]، أي أنا معه معية حفظ ورعاية.

ويؤكد على ضرورة استصحاب ذكر الله عند الدعوة إليه قوله تعالى لموسى وأخيه هارون عليهما السلام حين أرسلهما إلى فرعون: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ (طه:٤٢)، فطلب منهما أن

يلزما ذكره سبحانه ولا يضعفا عن ذلك، خاصة أنهما مقبلان على دعوة طاغية شقي لا يتوانى في إيذاء من يخالفه ويعصيه، ولذلك: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ (طه:٤٥)، وكذلك هي طريق الدعوة إلى الله مليئة بأسباب الخوف والأذى، ولا سبيل للنجاة من ذلك وإراحة القلوب منه إلا بإدامة ذكره سبحانه تعالى، مصداقا لقوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد:٢٨).

الدعوة دون مداهنة في الحق

وهذا المعنى نستفيده كذلك من الآية السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، إذ إنها مشتملة على التكبير الاعتقادي، إلى جانب التكبير القولي الظاهر، ومعنى ذلك أن يعتقد أن الله أعظم وأجل وأكبر مما سواه كائنا من كان. وفي هذا يقول صاحب صفوة التفاسير: «وإنما ذكرت هذه الجملة بعد الأمر بالإنذار تنبيها للنبي ﷺ على عدم الاكتراث بالكفار، فإن نواصي الخلائق بيد الجبار، فلا ينبغي أن يبالي الرسول ﷺ بأحد من الخلق ولا أن يرهب سوى الله، فإن كل كبير مقهور تحت عظمته تعالى وكبريائه»[٤].

ويؤيد هذا المعنى أيضا ما جاء في الحديث الشريف: «إن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»[٥].

طهارة القلب وتزكية النفس

وهذا المعنى نستفيده من قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾، فقد ذكر الإمام القرطبي في تفسيره أن في هذه الآية ثمانية أقوال، ذكر منها أن المراد بالثياب القلب، أي: طهر قلبك ونيتك من الصفات الذميمة، وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير. وقريب منه أيضا أن المراد طهارة النفس من الذنوب والمعاصي، وهو قول مجاهد[٦]. والقولان معا يفيدان أن الرسول ﷺ قد أمر بتطهير باطنه وتزكية نفسه من كل الصفات الذميمة التي قد تعلق بالقلب، كالرياء والحسد، والكبر، والعجب، والبغض في غير الله عزوجل.

ومما لا شك فيه أن الإنسان مأمور بإصلاح نفسه وتزكيتها قبل إصلاح غيره، كما يدل عليه قول الله تعالى مخاطبا بني إسرائيل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:٤٤)، فدل على أن من صفات الرشد وتمام العقل أن يبدأ الإنسان بإصلاح نفسه أولا، وما أحسن قول أبي العتاهية:

يا أيها الرجل المعلم غيره
هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى
كيما يصح به وأنت سقيم
وتراك تصلح بالرشاد عقولنا
أبدا وأنت من الرشاد عديم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى
بالعلم منك وينفع التعليم

طهارة الثياب والبدن والظاهر

وهذا المعنى نستفيده كذلك من الآية السابقة، إذ من معانيها الظاهرة الحث على تطهير الثياب والملابس من النجاسات والمستقذرات. قال ابن زيد: «كان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله أن يتطهر، وأن يطهر ثيابه»[٧].

التخلق بالأخلاق الرفيعة

وهذا المعنى يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾، فالرجز هنا، وإن حمله جمهور المفسرين على الأوثان والأصنام، إلا أنه يشمل أيضا كل فعل قبيح مستقذر، كما قال الفخر الرازي: «وقوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ كلام جامع لمكارم الأخلاق، كأنه قيل له: اهجر الجفاء، والسفه، وكل قبيح، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين»[٨].

الأدب التاسع: التواضع وترك العجب:

وهذا المعنى نستمده من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾، فقد ذكر الإمام القرطبي أن في الآية أحد عشر تأويلا، من أظهرها أن المراد: لا تمنن على الله بأعمالك، فتستكثرها عليه، ولكن اعلم أن ما حصل لك من توفيق وسداد إنما هو منة من الله عليك ليس لك فيه شيء[٩].

ففي الآية إرشاد للنبي ﷺ وأمته بلزوم التواضع وهضم حق النفس وإرجاع كل نجاح وتوفيق إلى الله تعالى، لاسيما إذا كثر الأتباع، وبلغت الشهرة الأسماء.

عدم التوسل بالدعوة لطلب الدنيا

وهذا المعنى نستفيده كذلك من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾، حيث ذهب جماعة من المفسرين إلى أن المراد النهي عن استعمال النبوة والقرآن وسيلة للحصول على الأجر والمقابل من الناس[10]. فمقام الدعوة إلى الله تعالى أرفع من أن يطلب به متاع زائل، ولذلك جعل الله تعالى من علامات صدق المرسلين في دعوتهم لأقوامهم، تجردهم من هذا العمل الخسيس، كما يفهم ذلك من قوله تعالى على لسان الرجل الصالح من قوم موسى عليه السلام: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١﴾ (يس:٢٠-٢١)، حيث جعل من عدم سؤال المرسلين قومهم أجر دعوتهم دليلا كافيا على صدقهم وإخلاصهم في ذلك.

الصبر على تحمل المشاق

وهذا المعنى نستفيده من قوله تعالى ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾، حيث أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالصبر، وعدم الجزع والسخط؛ فبدون الصبر لا يتحقق نصر، ولا يظفر بمطلوب، كما يدل عليه قول المؤمنين: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٢٥٠)، حيث سألوا الله تعالى الصبر والثبات قبل أن يسألوه النصر، لأنه لا يتحقق إلا بهما. ولذلك كرر الله تعالى مطالبة نبيه ﷺ بالصبر على أذى الناس في غير موضع من القرآن، كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف:٣٥)، وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ (ق:٣٩)، وغير ذلك من الآيات الكثيرة.

فإن كان هناك من خلق يتأكد على الداعي الاهتمام به فهو الصبر بلا شك.

الإخلاص لله

وهذا المعنى نستمده من الآية السابقة أيضا، حيث قدم الله تعالى الجار والمجرور ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ على فعل الأمر ﴿فَاصْبِرْ﴾ ليفيد الاختصاص؛ أي ليكن صبرك على مشاق الدعوة خالصا لوجه الله تعالى، كما قال الإمام مجاهد[11].

ولا شك أن الإخلاص مأمور به في جميع الأعمال والطاعات لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (البينة:٥)، والدعوة إلى الله تعالى من أجل الأعمال التي يتأكد فيها الإخلاص، فعلى قدر وجوده يكون التوفيق من الله.

فهذه جملة آداب تجلت في هذه الآيات السبع من سورة المدثر، وهي تمثل سرا من أسرار نجاح الدعوة النبوية؛ بحكم أن النبي ﷺ قد امتثل ما فيها قطعا، وأنزلها في حياته خير تنزيل، كما يدل على ذلك حديث عائشة رضي الله عنها: «كان خلق رسول الله ﷺ القرآن»[12]، كما أن سنته وسيرته ﷺ شاهدتان على هذه المعاني كلها.

وبالتالي يمكن القول: إن هذه الآيات تعد منهجا ربانيا موضوعا للدعاة إلى الله تعالى، من أجل أن يستنيروا بأنوارها وهم يسيرون في هذا السبيل الشاق الطويل، محققين قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف:١٠٨). والحمد لله رب العالمين.

الهوامش

١- ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج٢١ ص٣٥٧.

٢- ينظر تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ج٨ ص٣٦٢.

٣- صحيح البخاري معلقا بصيغة الجزم، ومسند أحمد برقم: ١٠٩٦٨.

٤- صفوة التفاسير للشيخ محمد علي الصابوني، ج٣ ص٤٥٣.

٥- سنن أبي داود برقم: ٤٣٤٤، والترمذي برقم: ٢١٧٤ وحسنه، وصححه الشيخ الألباني.

٦- ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج٢١ ص٣٥٩.

٧- ينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٨ ص٢٦٣.

٨- ينظر صفوة التفاسير للشيخ محمد علي الصابوني، ج٣ ص٤٥٤.

٩- ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج٢١ ص٣٦٦.

١٠- ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج٢١ ص٣٦٧.

١١- ينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٨ ص٢٦٤.

١٢- صحيح مسلم برقم: ٧٤٦.